+ مدرسة التنشئة اللاهوتية

لمناسبة مرور عشر سنوات على افتتاح مدرسة التنشئة اللاهوتية، ومع بدء السنة الدراسية الجديدة فيها، ترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب، مساء الإثنين ١٦ تشرين الأول ٢٠٠٠ في كنيسة القديسة كاترينا في دير زهرة الاحسان. في نهاية الصلاة ألقى سيادته الكلمة التالية:

«أود أن أتذكر معكم ما علّمنا إياه آباء الكنيسة وأشرح الآية «من عمل وعلّم فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات» (متى ١٩:٥).

يظن الإنسان ان كلمة «عَمِلَ» تعني أن يشتغل في المدرسة أو في البيت أو في الشركة أو أي مكان ولكن المقصود هو عمل الإنسان على نفسه أي أن أعمل على نفسي لكي أستطيع التعليم، وهذا العلم ليس متعلقاً بالكتب التي يقرأ فيها البشر إنما بكتاب القلب المفتوح على كل الكيان. وليس ضرورياً أن يكون الإنسان كبيراً لكي يعلِّم. لقد قال الرب يسوع «دعوا الأولاد يأتون إليَّ» (لوقا ١٦:١٨) ولم يقل دعوا العلماء. أما الرسول بولس الذي كان يتكلّم بالروح القدس، قال «اختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود» (١ كور ٢٨:١). لقد اختار الرب الجهّال ليخزي من يدّعي العلم، حتى تظهر قوة الله وكي لا يدّعي الإنسان انه بقدرته يعلِّم. العلوم الأخرى تحتاج إلى سهر وجهد كبيرين، لكن علم اللاهوت الذي تجتهد الكنيسة أن تعلّمه، هو علم القلب فيه مكشوف، مفتوح كصفحة بيضاء ليكتب عليها اصبع المسيح. والله يكتب على ورقة متسخة، لذلك يعمل الإنسان على تنظيف صفحة قلبه لكي يفهم خطَّ الله اللطيف عليها.

قال يسوع: «من أفواه الأطفال والرضّع هيأتَ تسبيحاً» (متى ١٦:٢١). لأنه عرف الأطفال يؤمنون ببراءة وصدق. في كنيستنا نعطي الأطفال والرضّع المناولة لأن الطفل يؤمن أكثر من أي شخص كبير أنه يتناول يسوع، فيما الكبار قد يتخاصمون وهم في طريقهم إلى المناولة. الطفل يقول بكل جوارحه أريد أن آخذ يسوع ويؤمن بما يقول، أما الكبار فغالبيتهم يتناولون ولا يؤمنون فعلاً انهم يأخذون جسد الرب ودمه لأن المؤمن الحقيقي يشعر بالإنسحاق وبأن الله غير راضٍ عنه، ليس لأن الله غير راضٍ، بل لأنه صادق في قلبه انه بحاجة إلى الكثير لكي يُرضي الله. بطرس ارتعد عندما قال ليسوع: أنت ابن الله. ومن يقرأ الإنجيل يلاحظ الارتعاش الذي كان يصيب التلاميذ عند الوقوف أمام ابن الله لأنهم واعون أنهم أمام مجد الله.

في الكنيسة الأولى كانت المدارس اللاهوتية للأشخاص الراغبين بالمعمودية، للموعوظين. عظات القديس كيرلس الأورشليمي (القرن الرابع) كانت موجهة للموعوظين. الموعوظ هو الذي يتلقى التعليم قبل أن يقتبل المعمودية. أما نحن المعمَّدين، فالمفروض أن يتعب أهلُنا وعرّابونا كثيراً حتى يجعلوا منا قديسين، أي عارفين جوهر الإيمان، لُبّ ما يُعلّم في مدرسة اللاهوت. في اللاهوت شيء يقارب الفلسفة والفكر، لكن الإنسان ذا القلب الإلهي يكتشف كل شيء ويعرف كل شيء بالإيمان والممارسة. الإنسان الذي يعيش في الكنيسة ويصلّي، إذا أراد أن يدرس اللاهوت يدرك انه يعرف الكثير. طبعاً يتعلّم أسماء القديسين وسِيَرَهم وبعض المعالجات لبعض الأمور وبعض الهرطقات، لكنه يكتشف انه، كإبن للكنيسة، قد تعلّم اللاهوت من كتب الصلاة (الميناون والمعزي وغيرهما) الملهَمَة من الروح القدس. أما من يدّعي انه يواظب على الصلوات ولا يعرف اللاهوت فإما لا يكون منتبهاً لما يسمع في الكنيسة لأنه لا يحصر تفكيره في الصلاة أو لا يريد ذلك، أو انه لا يفهم ما يسمع وهذا دليل على تقصيره وعدم قراءته للكتاب المقدس لأن كل الصلوات التي نتلوها في الكنيسة تنبثق من الكتاب المقدس. التعليم اللاهوتي يصبح حاصلاً إذا كان القلب محلاً للاهوت.

القديس ايفاغريوس البنطي الذي اختبر الصلاة يقول «اللاهوتي هو من يصلّي، ومن يصلّي هو لاهوتي». فإذا كان الإنسان على علاقة مع الله فليس بحاجة لشيء آخر لأن هدف علم اللاهوت أن تعرف الله وعلاقته بالإنسان والعالم. الإنسان العطشان والجائع لله يعطش لقراءة الكتاب المقدس والصلاة وهو إنسان يحب الله والله يعلّمه اللاهوت ويرشده إلى الكنيسة والكتاب المقدس.

القصد من مدرسة التنشئة اللاهوتية ليس إعطاء درس في الرياضيات والفيزياء، ولا في علم اللاهوت لأن البعض يعرفون اللاهوت لكنهم ملحدون، وبعض العلماء يعرفون اللاهوت والأديان لكنهم يعرفونها في رؤوسهم، ولم يقل الله أعطني رأسك وفكرك بل قال «يا بنيّ أعطني قلبك» (أمثال ٢٦:٢٣)، ولما سأل الناموسي يسوعَ مجرّباً: «يا معلّم أية وصية هي العظمى في الناموس» قال يسوع «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك» (متى ٣٧:٢٢)، أي تحوّل فكرك وذهنك وقدرتك وقلبك وعقلك إلى محبة. الفكر دون محبة هو باب للشيطان. قد ينتفخ الإنسان نتيجة علمه ويتكبّر، والمتواضع الذي يلتهم الكتاب المقدس يشعر دائماً بالجوع والحاجة إلى تعلُّم المزيد لأن من يشرب ماء عذباً من نبع يعرف انه مهما شرب يبقى الكثير ليشرب. لقد أظهر الله نفسه لنا، تجسد ليكون المثال، والكتاب المقدس أُعطي لنا ليكون لنا الطريق، وبقدر ما نحب الله ونشتاق إليه يفرح بنا.

الرهبان فهموا «من عَمِلَ وعلَّم يُدعى عظيماً في ملكوت السموات» على الشكل التالي: هناك تعبيران Praxis (العمل) وtheoria (الثاوريا). البراكسيس تعني أن نصلّي ونصوم، وبالصلاة والصوم والأعمال والتضرّع يصعدنا الله تدريجياً لنصل إلى النور الإلهي، الثاوريا، حيث تعجز الكلمات عن التعبير عما يحدث، لذلك يلتزم الرهبان الصمت ويقضون أوقاتهم في التأمل.

فمن أراد دخول مدرسة التنشئة اللاهوتية، عليه أولاً أن يفتح قلبه لسكنى الله فيه كي يكون الله حاضراً في كل مل يقوم به، وإذا أراد أن يعلّم تفيض من فمه أنهار كلمات تمجد الله. وهذا واقع يحياه الأشخاص الذين يشتاقون إلى الله في كل لحظة من لحظات حياتهم. وفي هذه المدرسة نساعد من يريد المزيد من المعرفة من أجل محاربة شهود يهوه وأصحاب البدع والأفكار المسيئة إلى الإيمان. الإيمان لا يحتاج إلى علم، بل إلى تُقى وسجود أمام الله. دعائي أن يكون طلاب مدرسة التنشئة اللاهوتية والمعلّمين فيها على المستوى وإلاّ فهم يضيّعون أوقاتهم».